

١٠- موضوعات الشعر الأندلسى عامة

طرق الأندلسيون فى شعرهم فنون الشعر كافة، من الزهديات إلى التهكم، ونظموا قصائد الحماسة، والنسيب، والرثاء، والهجاء، والوصف بصفة خاصة.

وقد سبق أن أشرنا إلى قصور هذا الشعر الأندلسى من الناحية الذهنية، ونظننا لسنا بحاجة إلى أن نضيف إلى ذلك أنه كان فقيراً من الناحية العاطفية أيضاً، فيما خلا فلتات قليلة. فلم يصدر هذا الشعر عن فيض العاطفة الصادقة إلا فى النادر، والغالب عليه تكرار صور بعينها فى الوصف أو المديح أو الإخوانيات، ويطغى على القصيدة كلها ظل من قيلت له، أو فيه.

إلى أى مدى كان الشعر عامة - أئى كان - صادقاً؟ سؤال يعسر الجواب عليه، ولكنه ليس بهذا العسر فيما يتصل بالعرب. ففى شعرهم تتجلى قلة الصدق، أو بلفظ أصح: يغلب التقليد والجرى على المألوف المطروق بأكثر مما نجد فى آداب غيرهم من الأمم، فشاعرهم يجد نفسه - قبل أن يبدأ فى صوغ أبياته - مقيداً بمثل ومواضيع وضعها له السابقون كما وضعوا الأوزان والبحور التى لا يمسه تعديل أو تغيير ولا يتعداها شاعر قط فابن حزم مثلاً يصف فى شعره دمه وغزيرته ويقول:

لحولة أطلال بيرة نهد
بلوح كباتى الوشم فى ظمير اليد
ولا أبساً.. أبكى، وأبكى إلى الغد^(١)

تذكرتُ ودّاً للحبيب كأنه
وعهدى بعهد كان لى منه ثابتٌ
وقفتُ به، لا مؤمناً برجوعه

(١) ابن حزم: «طوق الحمامة»، (القاهرة ١٩٥٠م)، ص ٧٠.

ويقول:

عَيْنِي جَنَّتْ فِي فُؤَادِي لَوْعَةَ الْفِكْرِ
فَأَرْسِلَ الدَّمْعَ مُقْتَصِماً مِنَ الْبَصْرِ^(١)

ثم يقول في مقام آخر نثراً: «والبكاء من علامات المحب، ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم كثير الدمع هامل الشئون، تجيبه عينه وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جمود العين عديم الدمع، وأنا منهم»^(٢). ويقول في امتداح الخمر شعراً، ولكنه يختمه باستنكار شربها تمسكاً بأهداب الدين، ويقول إنه لم يشربها قط. وحدث مرة أن تلقى رجل منهم رقعة فيها أبيات بعثها إليه شخص مغرم به، فأجاب عليها بأبيات يتحدث فيها عن هواه به؛ ثم اعتذر عن فعله بقوله: بذلك جرت عادة الشعراء. ثم كتب بطاقة أنكر فيها نثراً ما قاله شعراً. هذا ولسنا في حاجة إلى الإشارة إلى ما هو معروف من انعدام الصدق أصلاً في شعر المديح، إذ يغلب عليه الإغراق في المبالغة والخلو من كل أثر للإحساس الصحيح.

وليس معنى ذلك أننا نقف جامدين تماماً حيال الشعر العربي كله، لأننا نتنسم في معانيه وألفاظه قوة حسية صادرة عن نزوع عميق إلى الترف مستقر في قلوب شعراء العرب، ونستشعر فيه ميلاً إلى الراحة والرخاوة ترتاح إليه النفس، ثم إننا نصادف فيه بين الحين والحين طفرات تتغلب فيها حدة الألم أو حرارة العاطفة على أسر القوالب الجامدة الثابتة وتعدو حدود الموضوعات المقررة التقليدية.

* * *

(١) نفس المصدر، ص ٢٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٧. ولم يورد المؤلف النصوص، وإنما أشار إلى المعاني، فأثبت بها استكمالاً للسياق: